صبحي سليمان

الحجاج بن يوسف الثقفي

ماله وما عليه

الدار الذهبية

الدار الذهبية للطبع والنشر والتوزيع
تليفون :: ٣٥٥١٧٤٨ ـ ٣٥٤٤٧٤٨ فاكس ٣٥٤٦٠٣١

الحجاج بن يوسف الثقفى ...

اسم معروف فى سماء الأعلام ...

الحجاج بن يوسف الثقفى ...

من ثقيف بدأ وأنتهى بالعراق ...

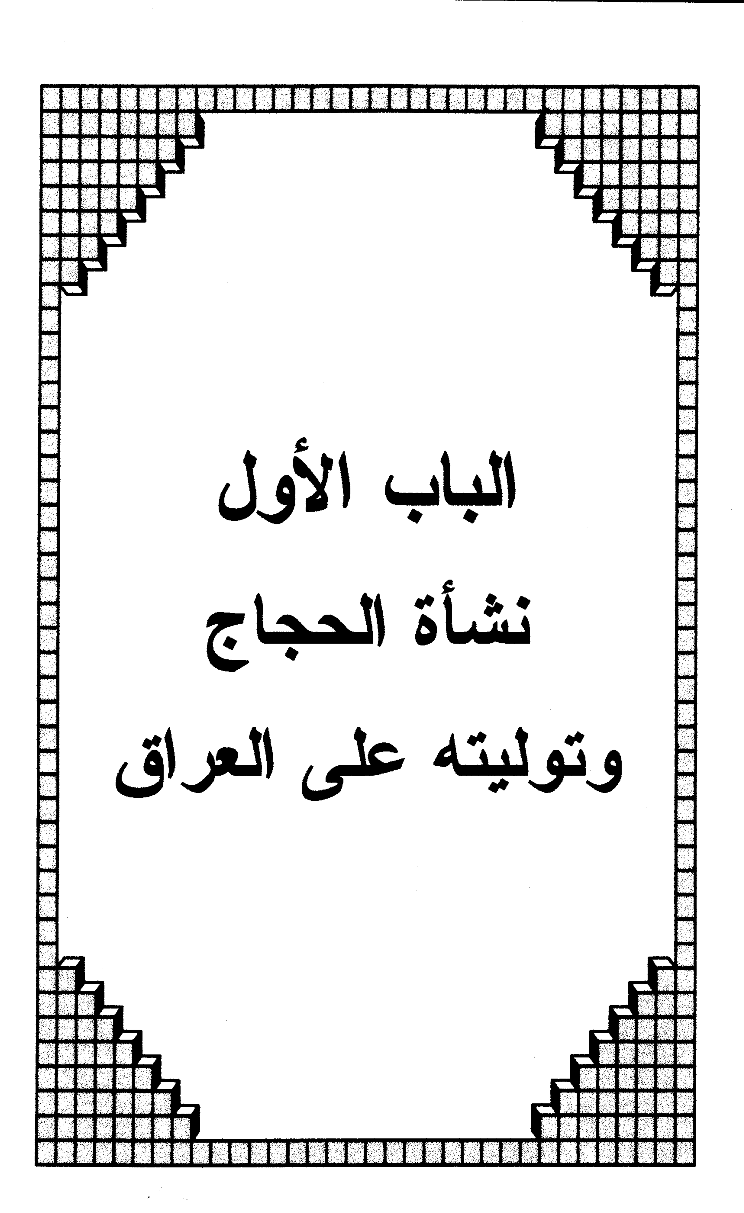
الحجاج بن يوسف الثقفى ...

الأقتراب منه هلاك والبعُد عنه فناء ...

فى كل زمان أعلام، ونبلاء، وسُفهاء، وقتلة.. لكل زمـان رؤساء وزُعماء، ومظلومين ضُعفاء ... على كل زمان يـتربع حُكـام ليقـهروا المحكومين... وها هو زمان قديم... زمان علا فيه الظُلم، واندثر الحـق والحقيقة... ولكن حكم أولى القلـوب الضعيفـة، والنفـوس السـقيمة، فأشاعوا الفساد والدمار فى جسد الدولة الإسلامية، ممـا جعـل طمـع الطامعين كسيف عرمرم يضرب بنصـل مـن حديـد جسـد الإسـلام والمسلمين... فها هو زمن الحجاج بن يوسف الثقفى، الذى أشاع الـهرج والمرج داخل الدولة الإسلامية وخارجها، فها هو يرتقى مِنصة الحُكـم، ويحكم بين الناس بلا دستور ولا قانون فها هو يحكـم علـى المظلـوم ويعفوا عن الظالم، فيا له من زمان ويا له من حُكم، وهذا الكتاب حـوى بين صفحاته نوادر عن الحجاج بينت شخصيته، ووضحت بعضاً مـن سمات ذلك العصر الغابرالذى لا نعلم عنه الكثير، أرجو أن نكـون قـد وفقنا الله فى وضع هذا الكتاب وأن يستفيد به كل قارئ.

مع تحياتى

م/صبحى سليمان



الباب الأول

نشأة الحجاج وتوليته على العراق

الحجاج ...

ذلك الفتى الثقفى، الذي حير الكثيرين، والذي أعيى بسلوكه المُحير ألوف من الباحثين، حيث إنك تجده تارةً من أتقى الناس وأنقاهم سريرة، وفجأةً ودون أى مُبرر تجده طاغية شرير يُحب القتل ويعشقه، كما أنه لا يتورع عن ارتكاب أكبر الكبائر لأبسط الأسباب، ولهذا حير الحجاج الكثيرين وأتعبهم بسبب ذلك التناقض الغريب الذي تتمتع به شخصيته.

ومن الغرائب التي تُروى عنه أنه كان يصوم يوم ويُفطر آخر، بينما لا يتورع عن ضرب الكعبة بالمنجنيق، وقتل عبد الله بن الزُبير الصوام القوام، بن السيدة أسماء بنت الصديق (رضى الله عنهم أجمعين)، فيا له من تناقض، ويا لها من شخصية.

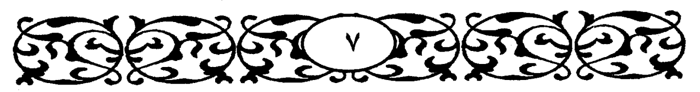
ومن الأمور التي لا يعلم عنها الكثير هو ذِكر الرسول الكريم ﷺ للحجاج بن يوسف الثقفى قبل أن يولد بكثير، وقد ذكر ذلك الشيخ جلال الدين السيوطى فى كتابه ((الخصائص الكُبرى)) فكتب فيها:

((وأخرج مُسلم عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت للحجاج:

ـ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

ـ (إن فى ثقيف كذاباً ومُبيراً).

ـ فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المُبير (الفاتك) فلا أخالك إلا إياه.



كما أن كبار الصحابة قد ذكروه أيضا،فقد أخرج ابن سعد والبيهقى عن عُمر بن الخطاب أنه أتاه آت فأخبره أن أهل العراق قد حصبوا إمامهم فخرج غضبان فصلى فسها فى صلاته فلما فرغ، قال:

ــ اللهم إنهم قد لبسوا علّى فالبس عليهم وعجل لهم بالغلام الثقفى الذي يحكم فيهم بحكم الجاهلية، لا يقبل من مُحسنهم ولا يتجاوز عن مُسيئهم، وما وُلد الحجاج يومئذ.

وقال أبو اليمان:

ــ علم عُمر أن الحجاج خارج لا محالة فلما أغضبوه استعجل لهم العقوبة التي لا بد لهم منها.

وأخرج أحمد في الزُهد والبيهقى عن الحسن قال:

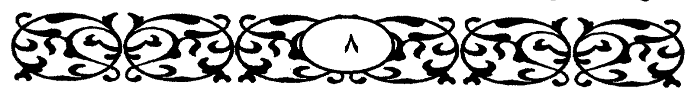
ــ قال علىَّ لأهل الكوفة:

ــ اللهم كما ائتمنتهم، ونصحت لهم فغشونى، فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال (الذي يجرّ أذياله خيلاء) الميال (الجائر، الظالم) يأكل خضرتها ويلبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية.

قال الحسن: وما خُلق الحجاج يومئذ.

وأخرج البيهقى عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علّى أنه قال:

ــ الشاب الذيال أمير المصرَين يلبس فروتها ويأكل خضرتها ويقتل أشراف حضرتها ويشتد منه الفرق ويكثر منه الأرق.



وأخرج البيهقى عن حبيب بن أبى ثابت قال:

قال على لرجل :

ــ لا مُت حتى تدرك فتى ثقيف.

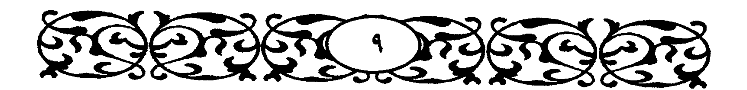
قال :

ــ ما فتى ثقيف؟

قال :

ــ ليقالن له يوم القيامة اكفنا زاوية من زوايا جهنم !!!

رجل يملك عشرين أو بضعاً وعشرين لا يدع لله معصية إلا ارتكبها حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة وكان بينه وبينها باب مُغلق لكسره حتى يرتكبها، يقتل بمن أطاعه من عصاه.



ولد الحجاج سنة ٤١ هـ، وقد كان يعلم الصبيان بالطائف وهى موطن ثقيف ثم عمل في شرطة ((روح بن زنباع الجذامى)) أحد أعوان عبد الملك بن مروان، ثم صار الحجاج رئيس الشرطة.

اشتهار أمر الحجاج

وقد اشتهر أمر الحجاج حين أرسله الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان لقتال الصحابى الجليل عبد الله بن الزبير الذى بويع له بالخلافة حين مات يزيد بن معاوية، فقد أطاع لعبد الله بن الزبير أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان.

وقد أخرج أبو نعيم فى الحلية:

((مات مروان فدعا عبد الملك إلى نفسه للحجاج فى جيش الى مكة، فورد مكة وظهر على أبى قبيس (جبل بمكة)، ونصب عليه المنجنيق يرمى به عبد الله بن الزبير ومن معه فى المسجد)).

وأخرج أيضا، عن يعلى التيمى عن أبيه قال:

((دخلت مكة بعد ما قتل ابن الزبير بثلاثة أيام ـ وهو حينئذ مصلوب قال:

ـ فجاءت أمه عجوز طويلة مكفوفة البصر، فقالت للحجاج:

ـ أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟

فقال الحجاج:



ـ المنافق (يقصد عبد اله بن الزبير).

فقالت:

ـ والله ما كان منافقا، إن كان لصواما قواما برا.

قال: انصرفي يا عجوز فإنك قد خرفت.

قالت: لا والله ما خرفت منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول:

ـ ((يخرج من ثيقيف كذاب ومبير)) فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت.

قسوة الحجاج:

جاء فى كتاب (حياة الحيوان الكبرى):

وقال الحافظ الذهبي وابن خلكان وغيرهما:

ـ أحصى من قتله الحجاج سوى من قتل فى حروبه فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا وكذا رواه الترمذى فى جامعه.

ومات فى حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة.

وقال الحافظ بن عساكر أن سليمان بن عبد الملك أخرج من كان فى سجن الحجاج من المظلومين ويقال:

ـ أنه أخرج فى يوم واحد ثمانين ألفا.



تولى الحجاج أمارة العراق

ولما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق، جمع أهل بيته وأولى النجدة من جنده، وقال:

أيها الناس، إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملولع عذبها، وعظم خطبها، وظهر ضرامها، وعسر إخماد نيرانها، فهل من ممهد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع، وقلب ذكى، وأنف حمى، فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها، وينصف مظلومها، ويداوى الجرح حتى يندمل، فتصفو البلاد، ويأمن العباد؟

فسكت القوم، ولم يتكلم أحد.

فقام الحجاج، وقال:

ـ يا أمير المؤمنين، أنا للعراق.

قال: ومن أنت ؟ لله أبوك.

قال: أنا الحجاج بن يوسف.

قال: ومن أين ؟

قال: من ثقيف.

قال: اجلس لا أم لك ... فلست هناك ...

ثم قال: ما لى أرى الرؤوس مطرقة، والألسن معتقلة !!!

فلم يجبه أحد فقام إليه الحجاج وقال:



ـــ أنا مجدل الفساق، ومطفئ نار النفاق.

قال: ومن أنت ؟

قال:

ـــ أنا قاضم الظلمة، الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة، وآفة الكفر والريبة.

قال: إليك عنى وذاك ... فلست هناك ...

ثم قال: من للعراق ؟

فسكت القوم.

وقام الحجاج وقال: أنا للعراق.

فقال:

ـــ إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شئ يا بن يوسف آية وعلامة فما آيتك ؟ وما علامتك ؟

قال:

ـــ العقوبة والعفو والاقتدار والبسط، والإدناء والإبعاد، والجفاء والبر والتأهب والحزم، وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلنى قطعته ومن نازعنى قصمته، ومن خالفنى نزعته، ومن دنا منى أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتى وعلامتى، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلونى، فإن كنت



للأعناق قطاعاً وللأموال جماعاً، وللأرواح نزاعاً، ولك فى الأشياء نفاعاً، وإلا فليستبدل بى أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل.

فقال عبد الملك:

ــ أنت لها، فما الذى تحتاج إليه ؟

قال: قليل من الجند والمال.

فدعا عبد الملك صاحب جنده، وقال له:

ــ هيئ له من الجند شهوته، وألزمهم طاعته، وحذرهم مُخالفته.

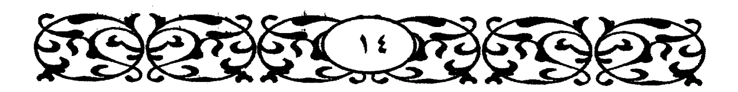
ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك.

فخرج الحجاج قاصداً العراق، فبينما الناس فى المسجد الجامع بالكوفة، إذ أتاهم آت، فقال:

ــ هذا الحجاج قدم أميراً على العراق.

فتطاولت الأعناق نحوه، وهو يمشى وعليه عمامة قد غطى بها أكثر وجهه، مُتقلداً سيفه مُنتكباً قوساً، حتى صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف، حتى غص المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة، وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه، عليهم الخز والديباج.

فقال الناس بعضهم لبعض:



ــ قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق حتى قال عُمير بن ظابئ البرجمي: ألا أحصبه لكم ؟

فقالوا: أمهل حتى ننظر.

فلما رأى الحجاج العيون شاخصة إليه، حسر اللثام عن فيه ونهض، ثم قال:

أنا ابن جــلا وطــلاع الثنايــا

متــى أضع العمامة تعرفونــي

ثم قال:

ــ يا أهل الكوفة، إني لأرى، رؤساً قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى، ثم قال:

هذا أوان الحرب فاشتدى زيم

قد لفها الليل بسواق حُطــم

لست براعي إبل ولا غنــم

ولا بجزار على ظهر وضم

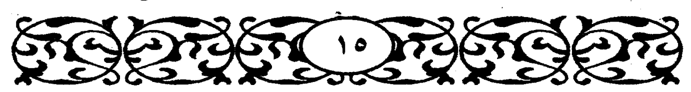
ثم قال:

قد لفها الليل بعصلبــي

أروع خراج من الــدوى

مهاجــــر ليس بأعرابـــي

معـــاود للطعــن بالخطـــي



ثم قال :

قد شمرت عن ساقهـــا فشدوا

وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيهـا وتـر عرد

مثل ذراع البكـــر أو أشد

لا بد ممـا ليس منه بـد

إني والله يا أهل العراق، ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها،فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا، فرماكم بي، لأنكم طال ما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

وإني والله ما أقول إلا وفيت، ولا أخلق إلا فريت، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه إلا ضربت عنقه.

يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، فقرأ:



بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين

سلام الله عليكم

فلم يقل أحد منهم شيئاً.

فقال الحجاج:

ـ اكفف يا غلام.

ثم أقبل على الناس، فقال:

ـ أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئا !!!

هذا أدب ابن نهية (هو صاحب الشرطة الذي كان يسبقه) أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن!!!

اقرأ، يا غلام، كتاب أمير المؤمنين.

فلما بلغ الى قوله:

سلام الله عليكم، لم يبق فى المسجد أحد إلا قال:

ـ وعلى أمير المؤمنين السلام.

ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم، فجعلوا يأخذون، حتى أتاه شيخ يرعش كِبراً، فقال:

ـ أيها الأمير، إني من الضعف على ما ترى، ولى ابن هو أقوى على الأسفار، فتقبله بدلا منى؟



فقال الحجاج:

ــ نفعل أيها الشيخ.

فلما ولىَّ، قال له قائل:

ــ أتدرى من هذا أيها الأمير ؟

قال: لا

قال: هذا عُمير بن ضابئ البرجمى الذى يقول أبوه:

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى

تركت على عثمان تبكى حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولاً فوطئ بطنه، فكسر ضلعين من أضلاعه فقال الحجاج: ردوه.

فلما رُد، قال الحجاج:

ــ أيها الشيخ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلاً يوم الدار؟ إن فى قتلك أيها الشيخ لصلاحاً للمسلمين يا حارس اضرب عُنقه.



شروط الشُرطى عند الحجاج

قال الحجاج : دلونى على رجل أُوليه الشُرطة.

فقيل له: أى الرجال تُريد؟

قال الحجاج:

ـــ أريده دائم العبوس، طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة، لا يحنق فى الحق على حر أو حِرة، يهون عليه سبال الأشراف فى الشفاعة.

فقيل له: عليك بعبد الرحمن بن عُبيد التميمى.

فأرسل إليه يستعمله.

فقال له:

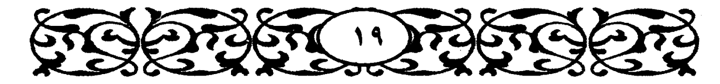
لست أقبلها إلا أن تكفينى عيالك وولدك وحاشيتك.

فقال الحجاج:

ـــ يا غلام، ناد من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه.

قال الشعبى:

ـــ فو الله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله، كان لا يحبس إلا فى دين، وكان إذا أتى برجل نقب على قوم، وضع مِنقبته (فأسه) فى بطنه حتىتخرج من ظهره، وكان إذا أتى برجل نباش للقبور حفر له قبراً ودفنه فيه حياً، وإذا أتى برجل قاتل بحديدة، أو شهر سلاحاً قطع يده، فربما أقام أربعين يوماً لا يؤتى إليه بأحد. فضم الحجاج إليه شُرطة البصرة مع شُرطة الكوفة.



بلاغة الحجاج

وقد اشتهر الحجاج بأنه من أهل البلاغة والفصاحة وحسن التعبير فلقد قال عنه الأصمعى:

((أربعة لم يلعنوا فى جد ولا هزل: الشعبى، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف الثقفى، وابن القرية أيوب بن يزيد، والحجاج أفصحهم)).

وقال مالك بن دينار ما رأيت أحدا أبين من الحجاج، إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه، حتى إني لأحسبه صادقا وأظنهم كاذبين.

وجاء فى تاريخ الأدب العربي أيضا:

((ومن مآثر الحجاج اهتمامه بوضع النقط، والشكل للمصحف وغيره ونسخه لمصاحف عثمان وإرسالها إلى بقية الأمصار)).

❊ ❊ ❊

خطبة للحجاج فى أهل الكوفة

دخل الحجاج الكوفة، فصعد المنبر، فانكسر تحت قدمه لوح، فعلم أنهم تطيروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى، وقال:

ـ شاهت الوجوه، وتبت الأيدى، وبؤتم بغضب من الله إذا انكسر عود (جذع ضعيف) تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم، إنى على أعداء



الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع، وأشأم من يوم نحس مستمر، وإنى لأعجب من لوط وقوله:

ـ ((لو أن بكم قوة أو آوى إلى رُكن شديد)).

فأى ركن أشد من الله تعالى أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين، وقد وليت عليكم أخى محمد بن يوسف، وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله مُعاذاً فى أهل اليمن !! فإنه أمره أن يُحسن إلى مُحسنهم، ويتجاوز عن مُسيئهم، وقد أمرته أن يُسيئ إلى مُحسنكم، وألا يتجاوز عن مسيئكم، وأنا أعلم أنكم تقولون بعدى:

ـ لا أحسن الله له الصحابة.

وأنا معُجل لكم الجواب:

ـ لا أحسن الله عليكم الخلافة.

أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم.



خطبة للحجاج بعد مرضه

مرض الحجاج، ففرح أهل العراق، وقالوا:

ـ مات الحجاج ... مات الحجاج ...

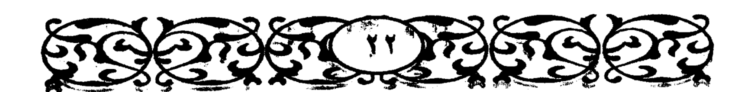
فلما أفاق صعد المنبر وخطب الناس، فقال:

ـ يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، مرضت فقلتم:

ـ مات الحجاج.

أما والله لأحبُّ إليَّ أن أموت من أن لا أموت، وهل أرجو الخير كله إلا بعد الموت؟ وما رأيت الله رضى بالخلود فى الدنيا، لأحد من خلقه إلا لأبغض خلقه إليه وأهونهم عليه (إبليس)، ولقد رأيت العبد الصالح يسأل ربه فقال:

ـ **((رب هب لى مُلكاً لا ينبغى لأحد من بعدى)) ففعل، ثم اضمحل ذلك فكأنه لم يكن.**



علامة رضا ... وعلامة سخط...

ذكر محمد بن المنتشر بن الأجدع الهمداني. قال:

((دفع إلى الحجاج رجلا ذميا (أى عبد على غير زمة الإسلام) وأمرني بالتشديد عليه والاستخراج منه، فلما انطلقت، قال لي الذمي:

ـ يا محمد إن لك لشرفا ودينا. إني لا أعطي على القسر (المعاملة بقوة وتهديد) شيئا فاستأذني وارفق بي، قال:

ـ ففعلت.

فأدى إلى في أسبوع خمسمائة ألف .

فبلغ ذلك الحجاج فأغضبه، فانتزعه من يدي ودفعه إلى الذي كان يتولى له العذاب، فدق يديه ورجليه ولم يعطه شيئا.

قال محمد بن المنتشر:

ـ فإني لسائر يوما في السوق إذا بصائح بي يقول:

ـ يا محمد فالتفت، فإذا أنا به معترضا على حمار مدقوق اليدين والرجلين، فخفت الحجاج إن أتيته وتذممت منه فملت إليه.

فقال لي:

ـ إنك وليت مني ما وى هؤلاء فرفقت بي وأحسنت إلي، وإنهم صنعوا بي ما ترى، ولي خمسمائة ألف عند فلان، فخذها مكافأة لما أحسنت إلي.

فقلت:



ـــ ما كنت لآخذ منك على معروفى أجراً، ولا لأرزأك على هذه الحالة شيئاً.

قال:

ـــ فأما إذا أبيت فاسمع منى حديثاً أُحدثك به، حدثنيه بعض أهل دينك عن نبيك:

(إذا رضى الله عن قوم أنزل عليهم المطر فى وقته، وجعل المال في سمحائهم، واستعمل عليهم خيارهم، وإذا سخط على قوم أنزل عليهم المطر في غير وقته، وجعل المال في بخلائهم، واستعمل عليهم شرارهم.

قال: فانصرفت، فما وضعت ثوبى حتى آتاني رسول الحجاج، فسرت إليه، فألقيته جالساً على فراشه والسيف مُسلط بيده، فقال لى: أُدنُ.

فدنوت شيئاً، ثم قال لى: أُدنُ.

فدنوت شيئاً، ثم قال لى الثالثة: أُدنُ لا أبا لك.

فقلت: ما بى إلى الدنو من حاجة وفى يد الأمير ما أرى.

فضحك وأغمد سيفه، وقال: اجلس، ما كان من حديث الخبيث؟

فقلت له: أيها الأمير، والله ما غششتك منذ استصحبتنى ولا كذبتك منذ استخرتنى، ولا خُنتك منذ ائتمنتنى، ثم حدثته، فلما صرت إلى ذكر الرجل الذى المال عنده أعرض عنى بوجهه، وأومأ إلّى بيده، وقال:

ـــ لا تُسمه... إن للخبيث نفساً وقد سمع الأحاديث.



الحجاج يدعو رجلاً صائماً للغداء

حج الحجاج فنزل ببعض المياه، ودعا بالغداء، فقال لحاجبه:

ـ انظر من يتغدى معي وأسأله عن بعض الأمر.

فنظر الحاجب فإذا هو بأعرابي نائم بين شملتين من شعر، فضربه الحاجب برجله، وقال له:

ـ ائت الأمير.

فأتاه فقال له الحجاج:

ـ اغسل يدك وتغد معي.

فقال له الأعرابي:

ـ إنه دعاني من هو خير منك فأجبته.

فقال الحجاج:

ـ من الذي دعاك ؟

قال الأعرابي:

ـ الله تعالى دعاني للصوم فصمت.

قال الحجاج:

ـ في اليوم الحار؟

قال الأعرابي:



ـ نعم، صُمت ليوم أحر منه.

قال الحجاج:

ـ فأفطر اليوم وصُم غداً.

قال الأعرابي:

ـ إن ضمنت لى البقاء إلي الغد.

قال الحجاج:

ـ ليس ذلك إليَّ.

قال الأعرابي:

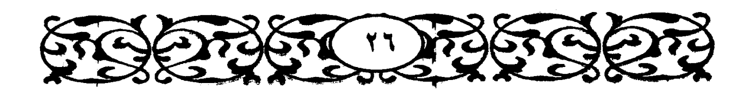
ـ فكيف تسألنى عاجلاً بآجل لا تقدر عليه؟

فقال الحجاج:

ـ إنه طعام طيب.

قال الأعرابي:

ـ إنك لم تُطيبه ولا الخباز، ولكن طيبته العافية.



أعرابى يُسكت الحجاج

قال زيد بن عمرو: سمعت طاوساً يقول:

ــ بينما أنا بمكة إذا دفعت إلى الحجاج بن يوسف، فثنى لى وساداً فجلست، فبينما نحن نتحدث إذ سمعت صوت أعرابى فى الوادى رافعاً صوته بالتلبية، فقال الحجاج: علىَّ بالملبى.

فأُتى به، فقال:

ــ من الرجل؟

قال :

ــ من أفناء الناس (أى من عامتهم).

قال : ليس عن هذا سألت ؟

قال :

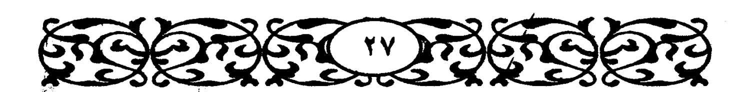
ــ فعم سألتنى ؟

قال : من أى البلدان أنت ؟

قال : من أهل اليمن.

قال له الحجاج:

ــ فكيف خلفت محمد بن يوسف (يعنى أخاه) ؟



قال:

ــ خلفته عظيماً جسيماً (أى مُمتلىء الجسد) خراجاً ولاجا ؟

قال الحجاج:

ــ ليس عن هذا سألتك ؟

قال: فعم سألتنى ؟

قال الحجاج:

ــ كيف خلفت سيرته فى الناس ؟

قال:

ــ خلفته ظلوماً غشوماً عاصياً للخالق، مُطيعاً للمخلوق.

فاغتاظ لذلك الحجاج، وقال:

ــ ما أقدمك على هذا وأنت تعلم مكانته منى؟

فقال الأعرابى:

ــ أفتراه بمكانة منك أعز بمكانتى من الله تبارك وتعالى وأنا وافد بيته، وقاضى دينه، ومُصدق نبيه صلى الله عليه وسلم ؟

فوجم لها الحجاج، ولم يُحر له جواباً، حتى خرج الرجل بلا إذن.



شيخ ينصح الحجاج

شكا الحجاج يوما سوء طاعة أهل العراق، وسقم مذهبهم، وسخط طريقتهم، فقال له جامع المحاربى، وكان شيخا صالحا خطيبا لسنا:

ـــ أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شنئوك لنسبك، ولا لبلدك، ولا لذات نفسك، ولكنهم نقموا أفعالك، فدع ما يبعدهم عنك إلى ما يدنيهم منك، وألتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك، وليكن ايقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك.

فقال له الحجاج: والله ما أرى أن أرد بنى اللكعية إلى طاعتى إلا بالسيف.

فقال جامع: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار؟

فقال الحجاج: الخيار يومئذ لله ؟

قال جامع: أجل ولكن لا تدرى لمن يجعله الله ؟

فغضب الحجاج، وقال: يا هناه إنك من محارب.

فقال جامع:

وللحرب سمينا وكان محاربا

إذا ما القنا أمسى من الطعن أحمرا

فقال له الحجاج: والله لقد هممت أن أخلع لسانك، وأضرب به وجهك.

فقال جامع: إن صدقناك أغضبناك، وإن كذبناك أغضبنا الله وغضب الأمير أهون علينا من غضب الله.

فقال الحجاج: أجل ؟

وسكن واشتغل ببعض الأمر فخرج جامع وانسل من صفوف الناس.



الحجاج يجزع لموت ابنه

لما هلك أبان بن الحجاج، وأمه أم أبان بنت النعمان ابن بشير، ودفنه الحجاج قام على قبره، فتمثل بقول زياد الأعجم:

الآن لما كنت أكمل من مشى

وافتر نابك عن شباة القارح

وتكاملت فيك المروءة كلها

وأعنت ذلك بالفعال الصالح

فلما انصرف إلى منزله، قال:

ــ أرسلوا خلف ثابت بن قيس الأنصاري.

فأتاه، فقال: أنشدني مرثيتك فى ابنك الحسن.

فأنشده:

قد أكـــذب الله من نعــــى حسنــــاً

ليس لتكذيب موتـــه ثمـــنُ

أجُول فى الـــدار لا أراك وفـــى

الـــدار أناس جوازهـــم غبـــنُ

بُدلنهـــم منك ليت أنهـــم

أضحـــوا وبيني وبينهـــم عدنُ

فقال له الحجاج: ارث أبني أبان.

فقال له: لا أجد به ما كنت أجدُ بحسن.

قال: وما كنت تجده؟

قال: ما رأيته قط فشبعت من رؤيته، ولا غاب عنى قط إلا اشتقت إليه.

فقال الحجاج: كذلك كنت أجد أبان؟

الحجاج يولى ابن عمـــه

قدم على الحجاج ابن عم له من البادية، فنظر إليه يولى الناس، فقال له:

ــ أيها الأمير، لم لا توليني بعض هذا الحضر؟

فقال الحجاج:

ــ هؤلاء يكتبون ويحسبون وأنت لا تحسب ولا تكتب.

فغضب الأعرابي، وقال:

ــ بلى، إنى لا أحسب منهم حسباً، واكتب منهم كتباً.

فقال الحجاج:

ــ فإن كان كما تزعم فاقسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس.

فما زال يقول:

ــ ثلاثة دراهم بين أربعة... ثلاثة بين أربعة...



حتى قال:

ـ لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شئ، كم هم أيها الأمير ؟

قال الحجاج:

ـ هم أربعة.

فقال الأعرابي:

ـ نعم أيها الأمير قد وقفت على الحساب، لكل منهم درهم، وأنا أعطى الرابع منهم درهما من عندى، وضرب بيده إلي تكته، فاستخرج منها درهما، وقال :

ـ أيكم الرابع؟ فو الله ما رأيت كاليوم زورا مثل حساب هؤلاء الحاضرين.

فضحك الحجاج ومن معه، وذهب بهم الضحك كل مذهب، ثم قال الحجاج:

ـ إن أهل أصبهان أخروا خراجهم ثلاث سنين، كلما أتاهم وال أعجزوه، فلأرمينهم بهذا، فخليق به أن ينجب.

فكتب له عهده على أصبهان.

فلما خرج استقبله أهل اصبهان واستبشروا به وأقبلوا عليه يقبلون يده ورجله وقالوا:

ـ أعرابي بدوي، ما يكون منه.



فلما استقر في داره بأصبهان جمع أهلها، فقال:

ــ ما لكم تعصون ربكم وتُغضبون أميركم وتنقصون خراجكم؟

فقال قائلهم:

ــ جور من كان قبلك، وظلم من ظلم.

قال:

فما الأمر الذي فيه صلاحكم؟

فقالوا:

ــ تؤخرنا بالخراج ثمانية أشهر، ونجمعه لك.

قال:

ــ لكم عشرة وتأتوني بعشرة ضُنماء.

فأتوه بهم فلما توثق منهم أمهلهم، وكلما قرب الوقت رآهم غير مُكترثين لما ندبوا إليه من الأجل.

وطال به ذلك، فجمع الضُمناء، وقال لهم:

ــ المال.

فقالوا:

ــ أصابنا من الآفة ما نقض ذلك.

فلما رأى ذلك منهم أقسم ألا يُفطر ــ وكان في شهر رمضان ــ حتى يجمع ماله أو يضرب أعناقهم.



ثم قدم أحدهم وضرب عُنقه، وكتب عليه:

ــ فُلان ابن فُلان أدى ما عليه وجعل رأسه فى بدرة.

وختم عليها، ثم قدم الثانى ففعل به مثل ذلك.

فلما رأى القوم الرؤوس تُجز، وتُجعل فى الأكياس بدلا من المال، قالوا:

ــ أيها الأمير، توقف علينا حتى نحضر لك المال.

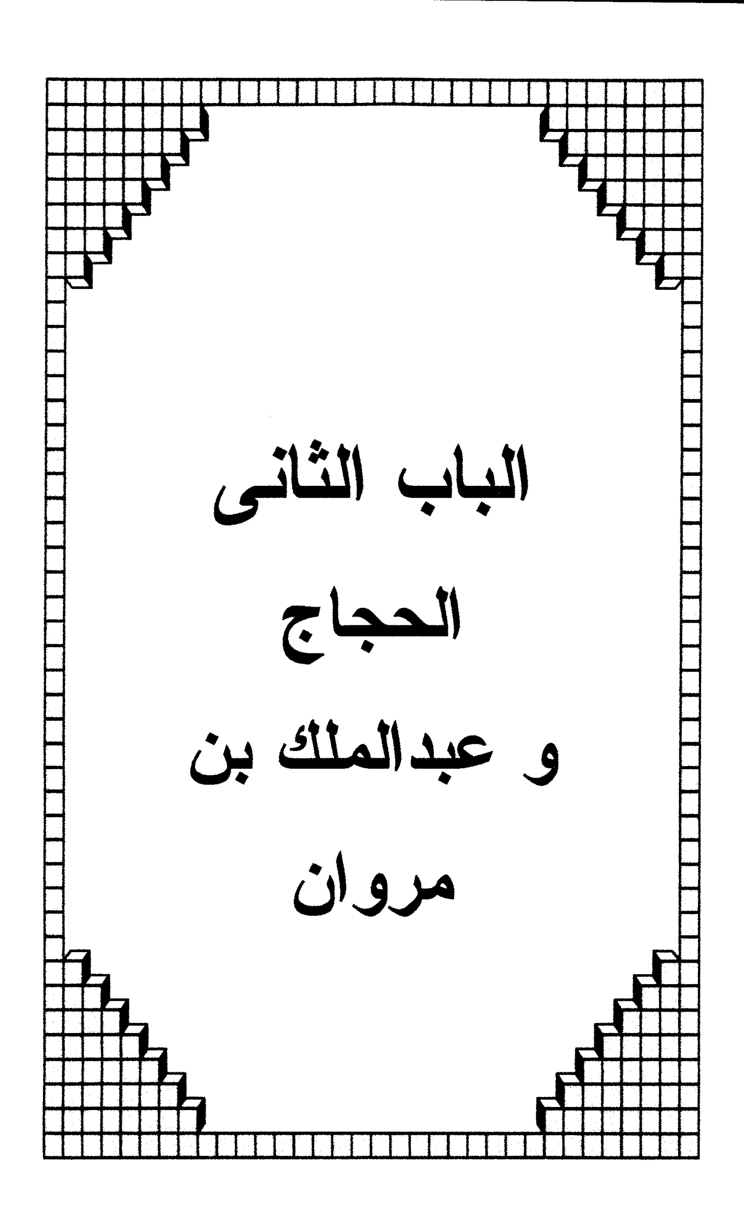
ففعل فأحضروه فى أسرع وقت.

فبلغ ذلك الحجاج فقال:

ــ إنا معاشر آل مُحمد ــ يعنى جده ــ ولدنا نجيب، فكيف رأيتم فراستى فى الأعرابى.

ولم يزل والياً عليها حتى مات الحجاج.





الباب الثانى

الحجاج

و عبدالملك بن

مروان

خوف الحجاج من عبد الملك

حدث سعيد بن جويرية، قال:

ـ خرجت خارجة على الحجاج بن يوسف، فأرسل الحجاج إلى أنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ وخادمه أن يخرج معه فأبى.

فكتب الحجاج إليه يشتمه.

فكتب أنس ابن مالك إلى عبد الملك بن مروان يشـــكوه، وأدرج كتـــاب الحجاج في جوف كتابه.

قال إسماعيل بن عبد الله:

ـ بعث إليَّ عبد الملك بن مروان في ساعة لم يكن يبُعث في مثلـــها، فدخلت عليه وهو أشد ما كان حنقاً وغيظاً، فقال:

ـ يا إسماعيل ما أشد أن تقول الرعية:

ـ ضعف أمير المؤمنين وضاق ذرعه في رجل من أصحـــاب النبـــي ﷺ، لا يقبل له حسنة ولا يتجاوز له عن سيئة ؟

فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

قال:



ـ أنس بن مالك، خادم رسول الله ﷺ ، كتب إلى يذكر أن الحجاج قـــد أضر به وأساء جواره، وقد كتبت في ذلك كتابين، كتابا إلى أنـــس بـــن مالك، والآخر إلى الحجاج، ثم أخرج على البريد، فـــإذا وردت العـــراق فابدأ بأنس بن مالك وادفع إليه كتابي، وقل له:

ـ اشتد على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك، ولن يأتي إليك أمـو تكرهه إن شاء الله، ثم ائت الحجاج فادفع إليه كتابه، وقل له:

ـ اغتررت بأمير المؤمنين غرة لا أظنه يخطئك شرها، ثم افهم ما يتكلـم به وما يكون منه حتى تفهمني إياه إذا قدمت على إن شاء الله.

قال إسماعيل:

ـ فقبضت الكتابين وخرجت على البريد حتى قدمت العـــراق، فبـدأت بأنس بن مالك فى منزله، ودفعت إليه كتاب أمير المؤمنين وأبلغته رسالته.

فدعا له وجزاه خيرا.

فلما فرغ من قراءة الكتاب، قلت له:

ـ يا أبا حمزة، إن الحجاج عامل، ويقدر أن يضرك وينفعك، فأنا أريد أن تصالحه.



قال أنس: ذلك إليك، لا أخرج عن رأيك.

ثم أتيت الحجاج فلما رآنى رحب، وقال:

ـ والله لقد كنت أحب أن أراك فى بلدى هذا.

قلت:

ـ وأنا والله لقد كنت أحب أن أراك وأقدم عليك بغير الذى أرسلت بـــه إليك.

قال: وما ذاك ؟

قلت: فارقت الخليفة وهو أغضب الناس عليك.

قال: ولم ؟

فدفعت إليه الكتاب، فجعل يقرؤه وجبينه يعرق، فمسحه بيمينه، ثم قـــال:

ـ اركب بنا إلى أنس.

قلت له:

ـ لا تفعل فإني سأتلطف به حتى يكون هو الذى يأتيك وذلـــك الـــذى أشرت عليه من مصالحتك.

وألقى كتاب أمير المؤمنين فإذا فيه:



بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عبد الملك بن مراوان إلى الحجاج بن يوسف

أما بعد

فإنك عبد طمت بك الأمور فطغيت، وعلوت فيها حتى جُزت قـــدرك، وعدوت طورك، وايم الله، لأغمزنك كبعض غمزات السيوف للثعـــالب، ولأركضنك ركضة تدخل منها في وجارك (جُحرك).

اذكر مناسب آبائك بالطائف، وإذا كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم، ويحفرون الآبار فى المناهل بأيديهم، فقد نسيت ما كنـــت عليـــه أنـــت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة.

وقد بلغ أمير المؤمنين استطالة منك على أنس بن مالك خادم رســول الله ﷺ جرأة منك على أمير المؤمنين، وغره بمعرفة غـــيره ونقماتـــه، وسطواته، على من خالف سبيله، وعمد إلى غير محجته ونـــزل عنـــد سخطته، وأظنك أردت أن تروزه (تجربه) بها، لتعلم ما عنده من التغيير والنكير فيها، فإن سوغتها مضيت قُدماً، وإن غصصت وليـــت دُبـــراً، فعليك لعنة الله، من عبد أخيفش (ضعيـــف البصـــر) العينيـــن، أصـــك الرجلين (مُلتصق الركبتين).



وأيم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجترمت منه جُرما، وانتــهكت له عرضاً لبعث إليك من يسحبك ظهراً لبطن، حتى ينتهي بك إلى أنـــس بن مالك فيحكم فيك بما أحب، ولم يخف على أمير المؤمنيـــن تبـــوعك، ولكل نبأ مُستقر، ولسوف تعلمون. (انتهى كتاب عبد الملك بن مروان)

قال إسماعيل:

ــ فانطلقت إلى أنس، فلم أزل به حتى انطلق معي إلى الحجاج.

فلما دخلنا عليه، قال الحجاج:

ــ يغفر الله لك أبا حمزة ؟ عجلت بالائمة، وأغضبـــت علينـــا أمـــير المؤمنين، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير.

فقال أنس: إنك كنت تزعم أنا الأشرار والله سمانا الأنصار.

وقلت:

ــ إنا من أبخل الناس، والله يقول فينا:

(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وزعمت أنني أهل نفاق، والله تعالى يقول فينا:

(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يُحبون من هاجر إليـــهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا).



فكان المخرج والمشتكى في ذلك إلى الله وإلى أمير المؤمنين، فتولى من ذلك ما ولاه الله، وعرف من حقنا ما جهلت، وحفظ منا ما ضيعت، وسيحكم في ذلك رب هو أرضى للمرضى، وأسخط للمسُخط، وأقدر على الغير في يوم لا يشوب الحق عنده الباطل، ولا النور الظلمة، ولا الهُدى الضلال، والله لو إن اليهود أو النصارى أتت من خدم موسى بن عمران، أو عيسى ابن مريم يوماً واحداً لرأت له مالم تروا لي في رسول الله ﷺ عشر سنين، فاعتذر إليه الحجاج وترضاه حتى قبل عذره ورضى عنه، وكتب برضاه وقبوله عذره إلى عبد الملك بن مروان.

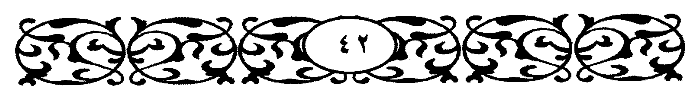
وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان كتاباً جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان

أما بعد

أصلح الله أمير المؤمنين، وأبقاه وسهل حظه وأحاطه، ولا أعدمناه، فإن إسماعيل بن أبى المهاجر رسول أمير المؤمنين أعز الله نصره قدم عليَّ بكتاب أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، وجعلنى من كل مكروه



فداءه يذكر شتيمتى وتوبيخى بآبائي وتعييرى بما كان قبل نزول النعمة بى من عند أمير المؤمنين أتم الله نعمته عليه وإحسانه إليه، ويذكر أمير المؤمنين جعلنى الله فداءه استطالة منى على أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ.

وأمير المؤمنين أصلحه الله فى قرابته من محمد رسول الله ﷺ إمام الهدى وخاتم الأنبياء أحق من أقال عثرتى، وعفا عن ذنبي فأمهلني ولم يجعلني عند هفوتي، للذي جُبل عليه من كريم طبائعه، وما قلده الله من أمور عباده، فرأى أمير المؤمنين — أصلحه الله — في تسكين روعتي وإفراج كربتي، فقد مُلئت رعباً وفرقاً من سطوته وفجاءة نقمته، وأمير المؤمنين — أقاله الله العثرات، وتجاوز له عن السيئات وضاعف له الحسنات، وأعلى له الدرجات — أحق من صفح وعفا وتغمد، وتعمل وأبقى، ولم يُشمت في عدوا مُكبا، ولا حسودا مُضبا، ولم يجرعنى غصصا، والذي وصف أمير المؤمنين من صنيعته إلى، وتنويهه بما أسند إلى من عمله، وأوطأنى من رقاب رعيته صادق فيه، مُجزى بالشكر عليه، والتوسل منى إليه بالولاية، والتقرب له بالكفاية.



وقد عاين إسماعيل بن أبى المهاجر رسول أمير المؤمنين وحامل كتابه نزولي عند مسرة أنس بن مالك،وخضوعي عند كتاب أمير المؤمنين، وإقلاقه اياي، ودخوله بالمصيبة على ما سيعمله أمير المؤمنين، فإن رأى أمير المؤمنين – طوقني الله بشكره، وأعانني على تأدية حقه، وبلغني إلى ما فيه موافقة مرضاته، ومد لي في أجله – أن يأمر لي بكتاب من رضاه وسلامة صدره ما يؤمنني به من سفك دمي، ويرد ما شرد من نومي، ليطمئن به قلبي، فقد ورد علّى أمْر جلّيل، خطبه عظيم، وأمره شديد.

أسأل الله ألا يسخط أمير المؤمنين، وأن يُثبته في حزمه وعزمه، وسياسته وفراسته، ومواليه وحشمه، وعماله وصنائعه، ما يحمد به حُسن رأيه وبُعد همته، إنه ولى أمير المؤمنين، والذاب (المُدافع) عن سُلطانه، والصانع في أمره والسلام. (انتهى كتاب الحجاج)

قال إسماعيل: لما قرأ أمير المؤمنين الكتاب قال:

– يا كاتب أفرخ (أذهب) روع (خوف) أبى محمد.

وكتب إليه بالرضا عنه.



وقد يعتقد الكثيرين من الحادثة السابقة أن عبد الملك بن مـــــروان طيب القلب شفيق بالمؤمنين رحيم، ولكن من يُرد أن يعلمـــــه علـــى حقيقته فليقرأ القصة التالية.

قتل المؤمن

وكان عبد الملك بن مروان قد كتب الى الحجاج فى أسرى الجمـــاجم أن يعرضهم على السيف، فمن أقر منهم بالكفر بُخروجه علينـــا فخـــل سبيله، ومن زعم أنه مؤمن فاضرب عنقه **(لاحظ التناقض فى الأفعال)** ففعل، فلما عرضهم أتى بشيخ وشاب، فقال للشاب:

ـــ أمؤمن أنت أم كافر؟

قال: بل كافر.

فقال الحجاج: لكن الشيخ لا يرضى بالكفر.

فقال له الشيخ: أعن نفسى تُخادعنى يا حجاج؟

ـــ والله لو كان شئ أعظم من الكفر لرضيت به.

فضحك الحجاج وخلى سبيلهما، ثم قدم إليه رجل، فقال له الحجاج:

ـــ على دين من أنت؟

قال: على دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين.

فقال الحجاج: اضربوا عنقه.



ثم قدم له آخر، فقال له الحجاج: على دين من أنت؟

قال: على دين أبيك الشيخ يوسف

فقال الحجاج: أما والله لقد كان صواماً قواماً، خلَّ عنه ياغلام فلما خلى عنه، انصرف إليه، فقال له:

ــ يا حجاج سألت صاحبك على دين من أنت ؟ فقال:

ــ على دين إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين، فأمرت به فقُتل، وسألتني:

ــ على دين من أنت: فقلت: على دين أبيك الشيخ يوسف. فقلت:

ــ أما والله لقد كان صواماً قواماً، فأمرت بتخلية سبيلى، والله لو لم يكن لأبيك من السيئات إلا أنه ولد مثلك لكفاه.

فأمر به فقتل.

ثم أتى بعمران بن عصام العنزى، فقال الحجاج: عُمران.

قال: نعم.

قال الحجاج:

ــ ألم أزوجك مارية بنت مسمع سيدة قومها ولم تكن لها أهلا ؟

قال: بلى.

قال الحجاج: فما حملك على الخروج علينا؟



قال: أخرجنى باذان.

قال الحجاج: فأين كنت من حُجة أهلك ؟

قال: أخرجنى باذان.

فأمر رجلاً فكشف العمامة عن رأسه، فإذا هو محلوق. قال الحجاج:

ــ ومحلوق أيضاً ؟ لا أقالنى الله إن لم أقتلك.

فأمر به فضرب، فسأل عبد الملك بعد ذلك عن عمران بن عصام، فقبل له: قتله الحجاج.

فقال: ولمَّ ؟

قال: بخروجه مع ابن الأشعث.

قال عبد الملك:

ــ ما كان ينبغى أن يقتله بعد قوله فيه:

وبعثت من ولد الأغر معتب

صقراً يلوذ حمامة بالعوسج

فإذا طبخت بناره أنضجتها

وإذا طبخت بغيرها لم تنضج

وهو الهزبر إذا أراد فريسة

لم ينجها منه صريخ الهجهج



ندم عبد الملك
ودهاء الحجاج

قال أبو عثمان عُمرو بن بحر الجاحظ:

كان عبد الملك سِنان قريش وسيفها رأياً وحزماً، وعابدها قبل أن يستخلف ورعاً وزُهداً، فجلس يوماً في خاصته فقبض على لحيته فشمها ملياً، ثم اجتر نفسه، ونفخ نفخة أطالها، ثم نظر فى وجوه القوم، فقال: ما أقول يوم ذى المسألة عن ابن أم الحجاج، وأدحض المحتج على العليم بما طوته الحُجب ؟ أما إن تمليكي له قرن بى لوعة يحشها التذكار!!! كيف وقد علمت فتعاميت، وسمعت فتصاممت، وحملة الكرام الكاتبون !!

والله لكأنى إلف ذى الضغن على نفسى، وقد نعت الأيام بتصرفها أنفساً حُق لها الوعيد بتصرم الدول، وما أبقت الشُبهة للباقى متُعلقاً، وما هو إلا الغل الكامن من النفس بحوبائها، والغيظ المندمل.

اللهم أنت لى أوسع، غير منتصر ولا معتذر، يا كاتب، هات الدواة والقرطاس، فقعد كاتبه بين يديه وأملى عليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف

أما بعد

فقد أصبحت بأمرك يوماً، يُقعدنى اللإشفاق ويقيمنى الرجاء، وإذا عجزت فى دار السعة وتوسط أمرك، فأنا لعمر الله فى دار الجزاء



وعدم السلطان واشتغال الحامة والركون إلى الذلة من نفسي والتوقع لما طويت عليه الصحف أعجز.

وقد كنت أشر كتك فيما طوقني الله عز وجل حمله ولاث (لف وعصب) بحقوى من أمانته فى هذا الخُلق المرعى فدُللت منك على الحزم والجد فى إماتة بدعة وإنعاش سُنة، فقعدت عن تلك ونهضت بما عاندها، حتى صرت حُجة الغائب، وعُذر اللاعن والشاهد القائم.

فلعن الله أبا عُقيل وما نجل فألأم والد وأخبث نسل، فلعمرى ما ظلمكم الزمان، ولا قعدت بكم المراتب، فقد ألبستكم ملبسكم، وأقعدتكم على روابى خططكم، وأحلتكم أعلى منعتكم، فمن حامر وناقل ماتح (المستخرج الماء من البئر) للقلب المقْعد فى القيافى المتفيهقة، ما نقدم فيكم الإسلام ولقد تأخرتم، وما الطائف منا ببعيد يجهل أهله.

ثم قمت بنفسك، وطمحت بهمتك، وسرك انتضاءُ سيفك، فاستخرجك أمير المؤمنين من أعوان روح بن زنباع وشُرطته، وأنت على معاونته يومئذ محسود، فهفا أمير المؤمنين والله يُصلح بالتوبة والغفران زلته، وكأنى بك وكأن ما لو لم يكن لكان خيراً مما كان، كل ذلك من تجاسرك وتعاملك على المخالفة لرأى أمير المؤمنين فصدعت صفاتنا، وهتكت حُجبنا، وبسطت يديك تحفن بهما من كرائم ذوى الحقوق اللازمة والأرحام الواشجة فى أوعية ثقيف.



فاستغفر الله لذنب ما له عذر، فلئن استقال أمير المؤمنين فيك الرأى، فلقد جالت البصيرة فى ثقيف بصالح النبى ﷺ، إذا ائتمنه على الصدقات، وكان عبده، فهرب بها عنه، وما هو إلا اختبار للثقة، والمطلب لمواضح الكفاية، فقعد فيه الرجاء كما قعد بأمير المؤمنين فيما نصبك له، فكأن هذا ألبس أمير المؤمنين ثوب العزاء ونهض يعذره إلى استنشاق نسم الروح، فاعتزل عمل أمير المؤمنين واظعن عنه باللعنة اللازمة والعقوبة الناهكة إن شاء الله، إذا استحكم لأمير المؤمنين ما يحاول من رأيه، والسلام.

ودعا عبد الملك مولى له يقال له، نباتة، له لسان وفضل ورأى، فناوله الكتاب، ثم قال له:

ــ يا نُباتة، العَجل ثم العَجل، حتى تأتى العراق، فضع هذا الكتاب فى يد الحجاج، وترقب ما يكون منه، فإذا أجبل عند قراءته واستيعاب ما فيه، فاقلعه عن عمله وانقلع معه حتى تأتى به، وهدن الناس حتى يأتيهم أمرى، بما تصفنى به فى حين انقلاعك، من حُبى لهم بالسلامة، وإن هش للجواب ولم تكتنفه الحيرة، فخذ منه ما يجيب به وأقرره على عمله، ثم أعجل علّى بجوابه.

قال نُباتة:

ــ فخرجت قاصداً إلى العراق، فضمنتى الصحارى والفيافى، واحتوانى القر (البرد)، وأخذ منى السفر، حتى وصلت، فلما وردته



أدخلت عليه فى يوم ما يحضره فيه الملأ، وعلىَّ شحوب مُضنىً، وقد توسط خدمه من نواحيه، وتدثر بمطرف خز أدكن، ولاث به الناس من بين قائم وقاعد، فلما نظر إلَّى ــ وكان لى عارفاً ــ قعد ثم تبسم تبسم الوجل، ثم قال:

ــ أهلا بك يا نباتة، أهلا بمولى أمير المؤمنين لقد أثر فيك سفرك، وأعرف أمير المؤمنين بك ضنيناً، فليت شعرى ما دهمك أو دهمنى عنده؟

قال: فسلمت وقعدت، فسأل ما حال أمير المؤمنين وخوله؟

فلما هدأ أخرجت له الكتاب فناولته اياه، فأخذه منى مُسرعاً ويده ترعد، ثم نظر فى وجوه الناس فما شعرت إلا وأنا معه ليس معنا ثالث، وصار كل من يطيف به من خدمه يلقاه جانباً، لايسمعون منا الصوت، ففك الكتاب فقرأه، وجعل يتثاءب ويردد تثاؤبه ويسيل العرق على جبينه، وصدغيه على شدة البرد من تحت قلنسوته من شدة الفرق، وعلى رأسه عمامة خز خضراء، وجعل يشخص إلَّى ببصره ساعة كالمتوهم، إلا أنه واجم، ثم يعاود الكتاب.

وإنى لأقول:

ــ ما أراه يثبت حروفه، من شدة اضطراب يده، حتى استقصى قراءته، ثم مالت يده حتى وقع جبينه، ثم قال مُتمثلا:



وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيت كُل تيممة لا تنفعُ

ثم قال:

ــ قُبح والله منا الحسن يا نباتة، وتواكلنا عند أمير المؤمنين الألسن، وما هذا إلا سانح فكرة نمقها مرصد يكلب بقصتنا، مع حُسن رأى أمير المؤمنين فينا يا غلام!

فتبادر الغلمان الصيحة، فمُلىء علينا منهم المجلس، حتى دفأتنى منهم الأنفاس.

فقال:

ــ الدواة والقرطاس.

فأتى بدواة وقرطاس، فكتب بيده وما رفع القلم مستمداً حتى سطر مثل خد الفرس، فلما فرغ، قال لى:

ــ يانباتة، هل علمت ما جئت به فنسمعك ما كتبنا؟

قلت: لا

قال: إذاً حسبك منا مثله.

ثم ناولنى الجواب، وأمر لى بجائزة فأجزل وجرد لى كساء ودعا لى بطعام فأكلت، ثم قال: نكلك إلّى ما أمرت به من عجلة أو توان، وإنى لأحب مقارنتك والأنس برؤيتك.



فقلت:

ـ كان معى فقل مفتاحُهُ عندك، ومفتاح قفلك عندى، فأحدثت لك العافية بأمرين: فأقفلت المكروه وفتحت العافية وما ساءنى ذلك وما أحب أن أزيدك بياناً، وحسبك من استعجال القيام.

ثم نهضت وقام مودعاً لى فالتزمنى، وقال:

ـ بأبى أنت وأمى رُبَّ لفظةٍ مسموعة ومُحتقر نافع، فكن كما أظن، فخرجت مستقبلاً وجهى حتى وردت أمير المؤمنين، فوجدته مُنصرفاً من صلاة العصر. فلما رآنى، قال:

ـ ما احتواك المضجع يا نباتة!

فقلت:

ـ من خاف وجه الصباح أدلج

فسلمت وانتبذت عنه فتركنى حتى سكن جأشى، ثم قال:

ـ مَهيَم (أى ما حالك، وماذا حدث).

فدفعت إليه الكتاب، فقرأ مُتبسماً، فلما مضى ضحك حتى بدت له سنٌ سوداء ثم استقصاه، فانصرف إلَى، فقال:

ـ كيف رأيت إشفاقه؟

قال(نباتة):

ـ فقصصت عليه ما رأيت منه.



فقال:

ـ صلوات الله على الصادق الأمين: إن من البيان لسحرا ثم قذف الكتاب إلى، فقال:

ـ اقرأ.

فقرأته، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

لعبد الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، المؤيد بالولاية، المعصوم من خطأ القوم وزلل الفعل، بكفالة الله الواجبة لذوى أمره، من عبد اكتنفتة الزلة، ومد به الصغار، إلى وخيم المرتع، ووبيل المكرع، من جليل فادح ومعتد قادح، والسلام عليك ورحمة الله التى اتسعت فوسعت، وكان بها إلى أهل التقوى عائدا فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله ال هو، راجيا لعطفك بعطفه.

أما بعد

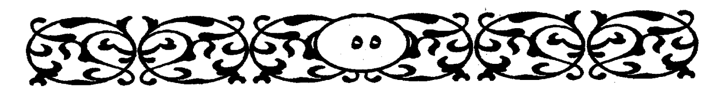
كان الله لك بالدعة فى دار الزوال والأمن فى دار الزلزال، فإنه من عنيت به فكرتك يا أمير المؤمنين مخصوصا، فما هو إلا سعيد يؤثر، أو شقى يوتر، وقد حجبنى عن نواظر السعد لسان مرصد ونافس حقد، انتهز تحنق به الصدور، فوا غوثاه استعاذة بأمير المؤمنين من رجيم، إنما سلطانه على الدين يتولونه، واعتصاما بالتوكل على من خصه بما



أجزل له من قسم الإيمان وصادق السنة، فقد أراد اللعين أن يفتق لأوليائه فتقا نبا به عنه كيده، وكثر عليه تحسره بلية قرع بها فكر أمير المؤمنين، ملبساً وكادحاً ومؤرشا (الذى يوقد نار الحرب)، ليفل من عزمه الذى نصبنى، ويُصيب ثأراً لم يزل به موتوراً وذكر قديم ما مُنى به الأوائل حتى لحقت بمثله منهم وما كنت أبلوه من خسة أقدار، ومزاولة أعمال، إلى أن وصلت ذلك بالتشرط لروح بن زنباع.

وقد علم أمير المؤمنين بفضل ما اختار الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضى، بأن الذى أهل القدمة (السابقة فى الأمر) الذين اجتبى الله منهم وقد اعتصموا وامعضوا من ذكر ما كان وارتفعوا بما يكون، وما جهل أمير المؤمنين للبيان موقعه، غير محتج ولا مُعتد أن متُابعة روح بن زنباع طريق الوسيلة لمن أراد من فوقه، وأن روحاً لم يلبسنى العزم الذى به رفعنى أمير المؤمنين عن خوله، وقد ألصقتنى بروح بن زنباع همةٌ لم تزل نواظرها ترمى بى البعيد، وتطالع الأعلام.

وقد أخذت من أمير المؤمنين نصيباً اقتسمه الإشفاق من سخطته والمواظبة على موافقته، فما بقى لنا بعد إلا صُبابةُ إرث، به تجول النفس وتطرف النواظر، ولقد سرت بعين أمير المؤمنين سير المثبط لمن يتلوه، المتطاول لمن تقدمه، غير مُبت موجف، ولا متثافل مجحف، ففتُ الطالب، ولحقت الهارب، حتى سادت السُنة وبادت البدعة، وخشى الشيطان، وحملت الأديان إلى العبادة العظمى والطريقة المثلى.

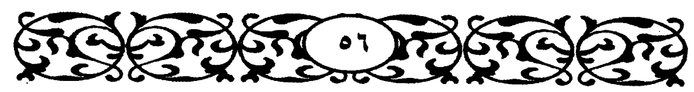


فها أنا ذا يا أمير المؤمنين، نصب المسألة لمن رامني، وقد عقدت الحبوة، وقرنت الوظيفتين لقائل محتج، أو لائم مُلتج.

وأمير المؤمنين ولى المظلوم، ومعقل الخائف، وستظهر له المِحنة نبأ أمرى، ولكل نبإ مستقر، وما حَقنت يا أمير المؤمنين فى أوعية ثقيف حتى روى الظمآن، وبطن الغرثان، وغصت الأوعية، وانقدّت الأوكية فى آل مروان، فأخذت ثقيف فضلاً صار لها، لولاهم للقطته السابلة، ولقد كان ما أنكره أمير المؤمنين لرابع أربعة:

أحدهم: ابنة شعيب النبى ﷺ، إذا رمت بالظن غرض اليقين تفرساً فى النبى المصطفى بالرسالة، فحق لها فيه ثم الرجاء، وزالت شُبهة الشك بالاختيار، وقبلها العزيز فى يوسف، ثم الصديق فى الفاروق، رحمة الله عليهما، وأمير المؤمنين فى الحجاج.

وما حسد الشيطان يا أمير المؤمنين خاملاً، ولا شرق بغير شجى، فكم غبطة يا أمير المؤمنين للرجيم أدبر منه وله عواء وقد قلت حيلته، ووهن كيده يوم كيت وكيت، ولا أظن أذكر لها من أمير المؤمنين، ولقد سمعت لأمير المؤمنين فى صالح ــ صلوات الله عليه ــ وفى ثقيف مقالاً هجم بى الرجاء لعذلء عليه بالحجة فى رده، بمحكم التنزيل فى لسان ابن عمه خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ، فقد أخبر عن الله وعز وجل وحكاية لغُر الملأ من قريش عند الاختيار والأفتخار، وقد نفخ



الشيطان فى مناخرهم، فلم يدعوا خلف ما قصدوا إليه مرمى، فقالوا:

(لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)

فوقع اختيارهم ـ عند المباهاة بنفخة الكفر، وكبر الجاهلية، على: الوليد بن المغيرة المخزومى، وأبى مسعود الثقفى، فصارا بالأفتخار بهما صنوين، ما أنكر اجتماعهما من الأمة مُنكر فى خبر القرآن ومبلغ الوحى، وإن كان ليقال للوليد فى الأمة يومئذ:

ـ ريحانة قريش.

وما رد ذلك العزيز تعالى إلا بالرحمة الشاملة فى القسم السابق، فقال عز وجل:

(أهم يُقسمون رحمة ربك؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا)

وما قدمتنى، يا أمير المؤمنين، ثقيف فى الأحتجاج لها، وإن لها مقالاً رحباً، ومعاندة قديمة، إلا أن هذا من أيسر ما يحتج به العبد المشُفق على سيده المغُضب، والأمر إلى أمير المؤمنين ، عزل أم أقر، وكلاهما عدل متُبع، وصواب معتقد.

والسلام عليك يا أمير المؤمنين، ورحمة الله، انتهى كتاب الحجاج.

قال نباتة:

ـ فأتيت على الكتاب بمحضر أمير المؤمنين عبد الملك، فلما استوعبته سارقته النظر على الهيبة منه، فصادف لحظى لحظه فقال:



ـ اقطعه ولا تعلمن بما كان أحداً.

فلما مات عبد الملك فشا عنى الخبر بعد موته.

وكما نرى فالخليفة عبد الملك بن مروان حاول من ناحيته أن يعزل الحجاج بن يوسف الثقفى من منصبه الذي ولاه، ولكن الحجاج يتزلل ويتزلف لعبد الملك بن مروان كى يتركه ولايعزله أو أن يقتله، وكما يتضح من خطابه فإن له أسلوب عزب رقيق يجعله يكسب قلب من يُحدثه مبُاشرة وأيضاً أجبر عبد الملك على قبول خطابه بصدر رحب ، ولم يمسسه بسوء.



الحجاج يحتال فى القتل

قدم عمر بن عبد العزيز للخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان نصيحة غالية مفادها أن يطلب من ولاته أن لا يقتلوا شخصاً إلا بعد أمره وموافقته حتى لا يجوروا على الخلق.

فعلم الحجاج بذلك وقد كانت شهوته فى القتل، فاختار رجلاً من الخوارج يُنسب إلى موضع يسمى (حروراء) بظاهر الكوفة يبغض الوليد بن عبد الملك بن مروان بغضاً شديداً ويصرح بذلك ولا يخاف، وأرسله إلى عبد الملك وأعلمه بحاله، وأنه يقتل أمثاله فقط.

فاختبر الوليد بن عبد الملك الرجل الحرورى وعلم منه ما يكنه ثم أمر بقتله، وبذلك ذهبت نصيحة عُمر بن العزيز هباءً منثوراً بسبب دهاء الحجاج وحيلته، ونص ما ورد في كُتب الأدب في هذه القصة هو:

ــ دخل عُمر بن عبد العزيز قبل أن يستخلف على الوليد ابن عبد الملك، فقال:

ــ يا أمير المؤمنين، إن عندي نصيحة، فإذا خلا لك عقلك، واجتمع فهمك فسلني عنها،

قال: ما يمنعك منها الآن؟

قال: أنت أعلم أنه إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم.

فمكث أياماً، ثم قال:



ـــ يا غلام، من بالباب؟

فقال له:

ـــ ناس وفيهم عُمر بن عبد العزيز،

فقال: أدخله.

فدخل عليه، فقال:

ـــ نصيحتك يا أبا حفص.

فقال عُمر:

ـــ إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وإن عُمالك يقتلون، ويكتبون:

ـــ إن ذنب المقتول كذا وكذا، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به، فاكتب إليهم: ألا يقتل أحد منهم أحداً حتى يكتب إليك بذنبه، ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك.

قال:

بارك الله فيك يا أبا حفص.

فكتب إلى الأمصار فلم يخرج من ذلك إلا الحجاج، فإنه أضناه، وشق عليه وأقلقه، وظن أنه لم يكتب به إلى أحد غيره، فبحث عن ذلك.

فقال:

ـــ من أين دُهينا ؟ ومن أشار على أمير المؤمنين بهذا ؟



فأخبر أن عُمر بن عبد العزيز هو الذى فعل ذلك.

فقال:

ـــ هيهات!!! إن كان عُمر فلا نقض لأمره.

ثم إن الحجاج أرسل إلى أعرابي حرورى من بكر بن وائل، ثم قال له:

ـــ ما تقول فى معاوية؟

فنال منه (أى سبه وشتمه).

قال له:

ـــ ما تقول فى يزيد؟

ـــ فسبه.

قال:

ـــ فما تقول فى عبد الملك؟

ـــ فظلمه.

قال:

ـــ فما تقول فى الوليد؟

فقال:

ـــ أجورهم حين ولاك، وهو يعلم عداءك وظلمك.

فسكت عنه الحجاج وافترصها منه.

ثم بعث إلى الوليد، وكتب إليه:



أنا أحوط لديني وأرعى لما استرعيتنى، وأحفظ له من أن أقتل أحداً لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأي، فشأنك وإياه.

فدخل الحرورى على الوليد، وعنده أشراف أهل الشام وعُمر فيهم، فقال له الوليد:

ـ ما تقول فيَّ ؟

قال:

ـ ظالم جائر جبار!!

قال:

ـ ما تقول فى عبد الملك؟

قال:

ـ جبار عات.

قال:

ـ فما تقول فى معاوية ؟

قال:

ـ ظالم.

قال الوليد لابن الريان:

ـ اضرب عنقه.



فضرب عنقه، ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده، فقال:

ــ يا غلام... اردد علّى عُمر.

فرده عليه، فقال: يا أبا حفص:

ــ ما تقول فى هذا ؟ أصبنا فيه أم أخطأنا ؟

فقال عُمر:

ــ ما أصبت بقتله، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب، كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل، أو تُدركه منيته.

فقال:

ــ شتمنى وشتم عبد الملك وهو حرورى،أفتستحل ذلك ؟

قال:

ــ لعمرى ما أستحله، لو كنت سجنته ــ إن بدا لك ــ أو عفوت عنه كان أرشد.

فقام الوليد مُغضباً، فقال ابن الريان لعمر:

ــ يغفر الله لك يا أبا حفص، لقد راددت أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرنى بضرب عنقك!

فقال عمر:

ــ ولو أمرك كنت تفعل ؟

قال: إى لعمرى.



التقرب إلى الله
بقتل أربعة

حكى عمر بن حفص قال:

قيل للحجاج: كيف وجدت منزلك بالعراق ؟

قال: خير منزل، لو كان الله بلغنى قبل أربعة، فتقربت إليه بدمائهم.

قيل: ومن هم؟

قال: مقاتل بن مسمع ولى سجستان، فأتاه الناس، فأعطاهم الأموال، فلما عزل دخل مسجد البصرة، فبسط الناس له أرديتهم فمشى عليها وقال لرجل يماشيه: ((**لمثل هذا فليعمل العاملون**)).

وعبد الله بن زياد بن ظبيان التيمى خوف أهل البصرة أمرا، فخطب خطبة أوجز فيها، فنادى الناس من أعراض المسجد:

أكثر الله فينا مثلك. فقال: ((لقد كلفتم الله شططا)).

٣ـ ومعبد بن زرارة، كان ذات يوم جالسا فى طريق فمرت به امرأة، فقالت: يا عبد الله كيف الطريق إلى موضع كذا ؟

فقال: ياهناه، مثلى يكون من عبيد الله !!!

٤ـ وأبو سمال الأسدى، أضل راحلته، فالتمسها الناس، فلم يجدوها، فقال: والله إن لم يرد إلى راحلتى لا صليت له صلاة أبدا.

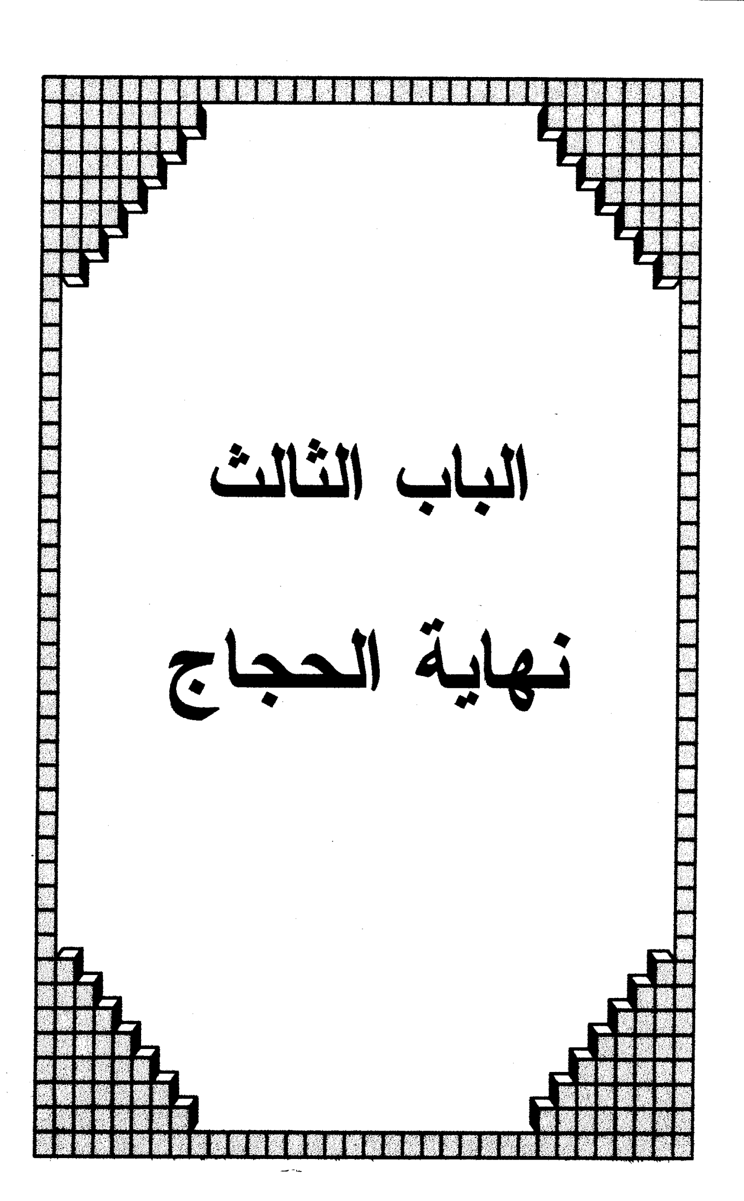
فالتمسها الناس فوجدوها، فقالوا: قد رد الله راحلتك فصل.

فقال: إن يمينى يمين مصر.

قال ناقل الحديث: ونسى الحجاج نفسه وهو خامس الأربعة، بل هو أفسقهم وأطغاهم فى كتابه إلى عبد الملك بن مروان:

ـ إن خليفة الله فى أرضه أكرم عليه من رسول إليهم.





الباب الثالث

نهاية الحجاج

فى الحادثة التالية سنرى قصة سعيد بن جُبير الرجل العالم الورع التقى الذى أخذ العلم عن الصحابة أمثال عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

وقد خرج سعيد وكثير من العلماء مع عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث على عبد الملك بن مروان حين عظم الجور والظلم وكثر الفساد.

وقد قُتل عبد الرحمن ولحق سعيد بن جُبير بمكة، فامسك به واليها خالد بن عبد الله القسرى وأرسله إلى الحجاج، وحين التقى سعيد بن جُبير بالحجاج لم يخف منه ولم يخش الموت بل تكلم بكلمة الحق عند أمير جائر ففاز بأفضل الجهاد، ودعا الله على الحجاج بأن لا يُسلطه على أحد يقتله بعده.

وتحقق بالفعل ما دعا به سعيد بن جُبير فإنه لم يقتل بعده أحداً، وعاش الحجاج بعد مقتله أياماً قليلة وتوفى، حتى يروى أنه كان يقول فى مرضه الذى مات منه: ما لى ولسعيد بن جبير.

وحاصل القصة هو:

قدم سعيد بن جبير على الحجاج، فقال له:

ــ ما اسمك؟

قال: سعيد.



قال: ابن من ؟

قال: ابن جُبير.

قال الحجاج: بل أنت شقى بن كسير.

قال سعيد: أمى أعلم باسمى واسم أبى.

قال الحجاج: شقيت وشقيت أمك.

قال سعيد: الغيب يعلمه غيرك.

قال الحجاج: لأوردنك حياض الموت.

قال سعيد: أصابت إذاً أمى اسمى.

قال الحجاج: فما قولك فى محمد ؟

قال سعيد: نبى الرحمة وإمام الهدى.

قال الحجاج: فما قولك فى الخلفاء؟

قال سعيد: لست عليهم بوكيل، كُل امرئ بما كسب رهينة.

قال الحجاج: أشتمهم أو أمدحهم؟

قال سعيد: لا أقول ما لا أعلم

قال الحجاج: أيهم أعجب؟

قال سعيد:أرضاهم لخالقى.

قال الحجاج: فأيهم أرضى للخالق؟

فقال سعيد: عِلم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم.



قال الحجاج: صف لى قولهم فى علّى، أفى الجنة هو أم فى النار ؟

قال سعيد: لو دخلت الجنة فرأيت أهلها علمت، ولو رأيت من فى النار علمت، فما سؤالك عن غيب قد حُفظ بالحجاب ؟

قال الحجاج: فأى رجل أنا يوم القيامة؟

قال سعيد: أنا أهون على الله من أن يُطلعنى على الغيب.

قال الحجاج: أبيت أن تُصدقنى.

قال سعيد: بل لم أرد أن أكذبك.

قال الحجاج: دع عنك هذا كله وأخبرنى، مالك لم تضحك قط ؟

قال سعيد: لم أر شيئاً يُضحكنى، وكيف يضحك مخلوق من طين، والطين تأكله النار، ومنقلبه إلى الجزاء!!!

قال الحجاج: فأنا أضحك.

قال سعيد: كذلك خلقنا الله أطواراً.

قال الحجاج: هل رأيت شيئاً من اللهو؟

قال سعيد: لا أعلم.

فدعا الحجاج بالعود والناى، فلما ضُرب بالعود ونُفخ فى الناى، بكى سعيد.

قال الحجاج: ما يُبكيك؟

قال سعيد:



ـــ هو الحزن، ذكرنى أمراً عظيماً، أما هذه النفخة فذكرتنى يوم النفخ فى الصور، وأما العود فشجرة قُطعت فى غير حق، وأما الأوتار فمن الشاة تُبعث معها يوم القيامة.

فقال الحجاج:

ـــ أنا أحب إلى الله منك، أنا مع إمام الجماعة وأنت مع إمام الفرقة.

قال سعيد: ما أنا بخارج على الجماعة ولا أنا براض عن الفتنة، ولكن قضاء الرب نافذ لا مرد له.

قال الحجاج: كيف ترى ما نجمع لأمير المؤمنين ؟

قال سعيد: لم أره.

فدعا الحجاج بالذهب والفضة والكسوة والجوهر فوضع بين يديه.

قال سعيد: هذا حسن إن قمت بشرطه.

قال الحجاج: وما شرطه؟

قال سعيد:

ـــ أن تشترى بما تجمع من ذلك الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة.

قال الحجاج: أتحب أن تنال منه شيئاً؟

قال سعيد: لا أحب ما لا يحب الله.

قال الحجاج: ويلك؟

قال سعيد: الويل لمن زحُزح عن الجنة فأُدخل النار.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه.

فلما أدبر ضحك قال الحجاج: ما يُضحكك يا سعيد ؟



قال سعيد: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك.

قال الحجاج: اضربوا عُنقه.

قال سعيد: دعنى أُصل ركعتين

فاستقبل القبلة، وهو يقول: ((إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)).

قال الحجاج: اصرفوه عن القبلة.

قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم.

قال الحجاج: لم نوكل بالسرائر، وإنما وكلنا بالظواهر.

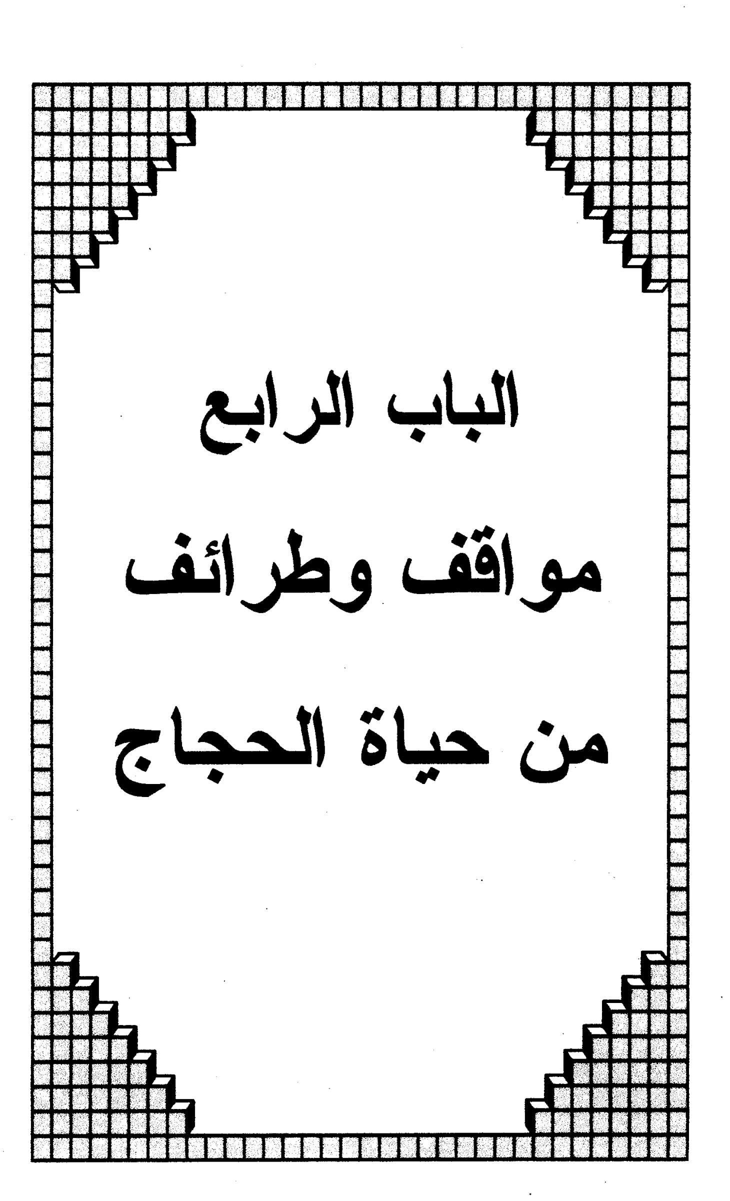
قال سعيد: اللهم لا تُسلطه على أحد يقتله بعدى.

ثم ضُربت عنقه وكان ذلك فى سنة ٩٥ هـ.

وبعدها بمدة قصيرة توفى الحجاج بن يوسف الثقفى وهو فى حالة نفسية مرعبة، فقد كان يهذى بكلمات لا يعلم مغذاها أحد وكان يُكرر كلمة واحدة فقط، يقولها بفزع ورعب وهى:

((أبعدوا عنى سعيد بن جُبير)) أو ((مالى وسعيد بن جُبير))

فهذه الكلمات هى التى كانت تتكرر على لسانه باستمرار، مع الأصوات الرهيبة المُرعبة التى كانت تخرج من فيه حاملة معها كُل معانى الرعُب والخوف، ويوم بعد الآخر تدهورت صحته ومات، وتحققت دعوة سعيد بن جبيرُ ولم يأذى الحجاج أحد بعده، ومات الحجاج ليضع نهاية لعهد قاس، ومرير على أُمة الإسلام.



الباب الرابع

مواقف وطرائف من حياة الحجاج

إذلال الحجاج

كانت هند بنت النعمان من أحسن النساء وجهاً في زمانها، فسمع الحجاج بجمالها الفائق، وحُسنها الرائع، فذهب إليها يخطبها، ودفع لها مالاً كثيراً، وتزوج بها، وأقام بها الحجاج في بلد أبيها فترة، ثم رحل بها إلى العراق.

وكانت هند أديبة بليغة، وشاعرة فصيحة،فدخل عليها الحجاج يوماً فرآها تنظر في المرآة وهي تقول:

وما هند إلا مُهرةٌ عربية

سليلة أفراس تحللها بغل

فإن ولدت فحلاً فِلّله درها

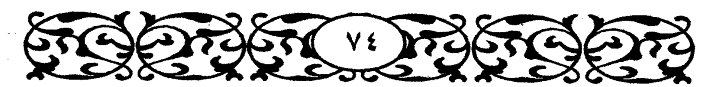
وإن ولَدَتٌ بغلاً فجاء به البغلُ

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها فبعث إليها عبد الله بن طاهر، وأعطاه مائتى ألف درهم لها بعد الصداق وقال له:

ـ طلقها .

فدخل عليها عبد الله بن طاهر وقال لها:

ـ يقول لك أبو محمد الحجاج، كُنتِ فطُلقت، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك عنده.



فقالت:

ـــ اعلم يابن طاه، إنا والله كُنا فما حمدنا، وطُلقنا فما ندمنا، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصي من كلب بنى ثقيف.

فبلغ الخبر أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، ووصُف له جمالها وحُسنها، فأرسل إليها يخطبها.

فأرسلت إليه كتاباً جاء فيه بعد الثناء عليه:

ـــ أعلم يا أمير المؤمنين، أن الإناء ولغ فيه الكلب.

فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها وكتب إليها يقول:

ـــ إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب، فاغسلي الإناء يحلّ الاستعمال.

فلما قرأت كتابه كتبت إليه بعد الثناء عليه قائلة:

ـــ يا أمير المؤمنين والله لا أحُلّ العقد إلا بشرط ... فإن قُلت ما هو الشرط...؟

قُلت:

ـــ أن يقود الحجاج محملى {جملي} من بلدي إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافياً بحليته {بملبسه وزينته} التي كان فيها أولاً ...

فقرأ عبد الملك الكتاب، وضحك منه كثيراً، وبعث إلى الحجاج، وأمره بذلك..



فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجابه وامتثل لأمره ولم يخالفه...

وبعث إلى هند يأمرها أن تجهز نفسها، فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حافي القدمين مرتديا أرث ثيابه حتى وصل بلد هند، وهناك ركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواريها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير ليقوده ويسير به، فجعلت تسئ إليه وتضحك عليه، وتسخر منه، وظلت كذلك إلى أن اقتربت من بلد الخليفة، فرمت بدينار إلى الأرض، ونادت:

ـ ياجمال ... إنه قد سقط منا درهم ... فارفعه إلينا ...

فنظر الحجاج إلى الأرض ... فلم يجد إلا دينارا ... فقال:

ـ إنما هو دينار...

فقالت:

ـ الحمد لله، سقط منا درهم، فعوضنا الله دينارا...

فاستحيا الحجاج وسكت، ولم يرد عليها جوابا...

ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان ... فتزوج بها...



وزراء فرعون أفضل

كان الحجاج بن يوسف الثقفى جالساً فى مجلسه بعد انتصاره على عبد الله بن الزبير، قال لحجابه: عليَّ بالمرأة الحرورية.

فلما حضرت.

قال لها: أنت بالأمس كُنتِ فى وقعة (ابن الزبير) تُحرضين الناس على قتلى وقتل رجالي .. ونهب أموالي؟

قالت: قد كان ذلك.

فالتفت الحجاج إلى وزرائه وقال لهم: ما ترون فيها؟

قالوا: عجل بقتلها.

وعندما سمعت المرأة ذلك ضحكت ضحكة مدوية أغتاظ لها الحجاج

فقال لها: ما أضحكك ؟

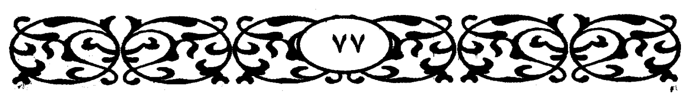
قالت: إن وزراء فرعون كانوا خيراً من وزرائك هؤلاء.

فالتفت إليهم الحجاج فرآهم خجلوا.

فقال لها: كيف ذلك؟

قالت: لأنه لما استشارهم فى قتل (موسى) قالوا (أرجه وأخاه) (يعنى أنظره إلى وقت آخر) وهؤلاء يسألونك تعجيل قتلى.

فضحك الحجاج، ثم أمر لها بعطاء وأطلقها، وأعجبه مقالتها.



فتيان ينجون من
القتل بالتورية

التورية من المحسنات المعنوية فى علم البلاغة وهى نوع من أنواع البديع، ومعنى التورية أن يذكر المُتكلم لفظاً واحداً له معنيان:

أحدهما: قريب متُبادر إلى الذهن غير مُراد للمتكلم.

والثاني: معنى بعيد خفي غير متُبادر للذهن ويكون هو المُراد.

وفى الحادثة التالية سنرى كيف نجا ثلاثة فتيان من القتل الذي أمر به الحجاج بالتورية. فعفا عنهم الحجاج لفصاحتهم. وحاصل الحادثة هو:

أمر الحجاج صاحب حرسه أن يطوف بالليل، فمن رآه بعد العشاء سكران ضرب عنقه. فطاف ليلة من الليالي فوجد ثلاثة فتيان يتمايلون، وعليهم إمارات السُكر ، فأحاطت بهم الغلمان، وقال لهم صاحب الحرس:

ـــ من أنتم حتى خالفتم أمر أمير المؤمنين، وخرجتم فى مثل هذا الوقت؟

فقال أحدهم:

أنا ابن من دانت الرقاب له
ما بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرغم وهى صاغرة
يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عنه وقال:

ـــ لعله من أقارب أمير المؤمنين .



ثم قال للآخر: وأنت من تكون ؟

فقال:

أنا ابن لمن لا تنزل الدهر قدره

وإن نزلت يوماً فسوف تعودُ

ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره

فمنهم قيام حولها وقعودُ

فأمسك عنه، وقال: لعله ابن أشرف العرب.

ثم قال للآخر: وأنت من تكون؟

فأنشد على البديهة:

أنا ابن لمن خاض الصفوف بعزمه

وقومها بالسيف حتى استقامت

وركباه لا ينفك رجلاه منهما

إذا الخيل في يوم الكريهة ولت

فأمسك عنه أيضاً، وقال: لعله ابن اشجع العرب، وتحفظ عليهم.

فلما كان الصباح رفع أمرهم إليه، فأحضرهم وكشف عن حالهم:

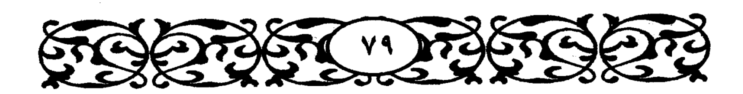
فإذا الأول: ابن حجام

والثاني: ابن فوال

والثالث : ابن حائك.

فتعجب من فصاحتهم ،وقال لجلسائه:

علموا أولادكم الأدب والبلاغة فوالله لولا فصاحتهم لضربت أعناقهم.



غلام شجاع يواجه الحجاج

بينما كان الحجاج جالساً في منظرة له وعنده وجوه أهل العراق إذ أتى بصبي من الخوارج يبلغ من العمر نحو بضع عشرة سنة، وله ذؤابتان مرخيتان قد بلغتا خصره، فلم يكترث به وإنما صار ينظر إلى بناء المنظرة وما فيها من العجائب، ويلتفت يميناً وشمالاً ثم اندفع، يقول:

ـ ((أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون)).

وكان الحجاج متكئا فاستوى في مقعده، وقال:

ـ يا غلام إني أرى لك عقلا وذهنا .. أحفظت القرآن ؟

قال: أوخفت عليه من الضياع حتى أحفظه وقد حفظه الله تعالى.

قال: أفجمعت القرآن ؟

قال: أوَ كان مُفرقا حتى أجمعه؟

قال : أفأحكمت القرآن ؟

قال : أليس الله أنزله محكماً ؟

قال : أفاستظهرت القرآن ؟

قال : معاذ الله أن أجعل القرآن وراء ظهري.

فقال الحجاج، وقد ثار غاضباً:

ـ ويلك، قاتلك الله .. ماذا أقول ؟

قال الغلام: الويل لك ولقومك .. قل:

ـ أوعيت القرآن في صدرك ؟

فقال الحجاج: فاقرأ شيئاً.



فاستفتح الغلام: (أعوذ بالله من الشيطان، الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ... إذا جاء نصر الله والفتح .. ورأيت الناس (يخرجون) من دين الله ــ أفواجا ..).

فقال الحجاج: ويحك إنهم يدخلون .

فرد الغلام: كانوا يدخلون .. أما اليوم فقد صاروا يخرجون.

فقال الحجاج: ولم ؟

قال الغلام: لسوء فعلك بهم.

قال الحجاج: ويلك يا غلام .. وهل تعرف من تخاطب ؟

قال الغلام: نعم .. شيطان ثقيف الحجاج.

قال الحجاج: ويلك من رباك ؟

قال الغلام: الذى زرعك.

قال الحجاج: فمن أمك ؟

قال الغلام: التي ولدتنى.

قال الحجاج: فأين ولدت؟

قال الغلام: في بعض الفلوات.

قال الحجاج: فأين نشأت؟

قال الغلام: في بعض البراري.

قال الحجاج: أمجنون أنت فأعالجك ؟

قال الغلام:



ــ لو كنت مجنونا لما وصلت إليك ووقفت بين يديك كأنني ممن يرجو فضلك أو يخاف عقابك.

وقال الحجاج:

ــ فما تقول في أمير المؤمنين ؟

قال الغلام :

ــ رحم الله أبا الحسن رضى الله تعالى عنه وأسكنه جنان خُلده.

قال الحجاج: ليس هذا عنيت .. إنما أعنى عبد الملك بن مروان.

قال الغلام: على الفاسق الفاجر لعنة الله.

قال الحجاج: ويحك .. بما استحق اللعنة أمير المؤمنين ؟

قال الغلام : أخطأ خطيئة ملأت ما بين السماء والأرض.

قال الحجاج: ما هى؟

قال الغلام : استعماله إياك على رعيته تستبيح أموالهم، وتستحل دماءهم.

فالتفت الحجاج إلى جُلسائه، وقال: ما تشيرون فى هذا الغلام؟

قالوا:

ــ اسفك دمه، فقد خلع الطاعة وفارق الجماعة.

فقال الغلام: يا حجاج .. جُلساء أخيك فرعون خير من جُلسائك حيث قالوا لفرعون عن موسى عليه السلام وأخيه: ــ



(أرجه وأخاه ..) وهؤلاء يأمرون بقتلى .. إذاً والله تقوم عليك الحجة بين يدى الله، ملك الجبارين ومُذل المسْتكبرين.

فقال الحجاج: هذب ألفاظك وقصر لسانك فإنى أخاف عليك بادرة الأمر، وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم.

فقال الغلام: لا حاجة لى بها .. بيض الله وجهك وأعلى كعبك.

فالتفت الحجاج، إلى جُلسائه، وقال: هل علمتم ما أراد بقوله، بيض الله وجهك وأعلى كعبك؟

قالوا: الأمير أعلم.

قال الحجاج: أراد بقوله(بيض الله وجهك) العمى والبرص، وبقوله: أعلى كعبك: التعليق والصلب.

ثم التفت إلى الغلام، وقال له: ما تقول فيما قلت؟

قال الغلام الغلام: قاتلك الله .. ما أفهمك.

فاستشاط الحجاج غضبا وأمر بضرب عُنقه .. وكان الرقاش حاضراً، فقال: أصلح الله الأمير .. هبه لى.

قال الحجاج: هو لك .. لا بارك الله لك فيه.

فقال الغلام: والله لا أرى .. أيكما أحمق من صاحبه .. الواهب أجلا قد حضر .. أم المستوهب أجلا لم يحضر؟

فقال الرقاشى: استنقذتك من القتل وتكافئنى بهذا الكلام ؟



فقال الغلام: هنيئاً لي بالشهادة إن أدركتني السعادة .. والله إن القتل في سبيل الله أحب إليَّ من أن أرجع إلى أهلي صفر اليدين.

فأمر له الحجاج بجائزة، وقال له: يا غلام قد أمرنا لك بمائة ألف درهم. وعفونا عنك لحداثة سنك، وصفاء ذهنك وحُسن توكلك على الله وإياك والجرأة على أرباب الأمر فتقع مع من لا يعفو عنك.

فقال الغلام:

ـ العفو بيد الله لا بيدك، والشكر له لا لك .. ولا جمع الله بيني وبينك.

ثم هم بالخروج فابتدره الغِلمان، فقال الحجاج:

ـ دعوه، فو الله ما رأيت أشجع منه قلباً ، ولا أفصح منه لساناً، ولعمري ما وجدت مثله قط .. وعسى وهو لا يجد مثلي فإن عاش هذا الغلام ليكونن أعجوبة عصره.



الحجاج والعصاة

لقى الحجاج يوماً رجلاً أعرابياً فقال له:

ـــ من أين أقبلت؟

فقال له الرجل:

ـــ من البادية.

فرأى الحجاج بيده عصى قديمة من أفرع الشجر فأراد أن يسخر منه.

فقال له: ما تلك بيمينك ؟

فقال الأعرابى:

ـــ هى عصاى أركزها لصلاتى، وأسوق بها دابتى وأقوى بها على سفرى وأعتمد بها فى مشيتى لتتسع خطوتى، وأقفز بها النهر، تؤمننى من الطريق، وألقى عليها ملابس لتظللنى، فى الحر وتُقرب إلىَّ ما بعد عنى، وأستعين بها عند الشجار، والضراب، وأطرق بها الأبواب وأتقى بها عض الكلاب وهى بديل الرمح فى الطعان، وللسيف فى مُبارزة الأقران ورثتها عن أبى، وورثها عن جدى، وأورثها ابنى من بعدى، وأهش بها على غنمى، ولى فيها مآرب أخرى .. فتعجب الحجاج من أمره ولم يستطع أن يرد عليه..



الصدق

خطب الحجاج فأطال فقام رجل فقال له:

ـــ الصلاة فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك ..

فأمر بحبسه ..

فأتاه قومه وسألوه أن يُخلى سبيله فقال:

ـــ إن أقر بالجنون خليته.

فقال الرجل:

ـــ معاذ الله لا أزعم أن الله ابتلانى وقد عافانى ..

فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه.

امتحان عسير

الأصمعى قال:

ـــ بعث الحجاج إلى يحيى بن يعمر، فقال له:

ـــ أنت الذى تقول إن الحسين بن على ابن عم رسول الله ﷺ ابن رسول الله ؟ لتأتينى بالمخرج مما قلت أو لأضربن عنقك ؟

فقال له ابن يعمر:

ـــ وإن جئت بالمخرج فأنا آمن ؟



قال الحجاج : نعم.

قال ابن يعمر اقرأ :

((وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى)) (الأنعام: ٨٣ ـــ ٨٥)

فمن أبعد ـــ عيسى من إبراهيم ؟ ... أم الحسين من محمد ﷺ ؟ وإنما هو ابن بنته.

فقال له الحجاج: والله لكأنى ما قرأت هذه الآية قط.

وولاه قضاء بلدة، فلم يزل بها قاضيا حتى مات.

حديث النـاس (إذا صلح الراعى)

كان الناس إذا أصبحوا في زمن الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا من قتل البارحة ومن جلب ومن جلد ومن قطع رأسه، وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع، فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البناء، والمصانع، والضياع، وشق الأنهار، وغرس الأشجار، ولما ولى سليمان بن عبد الملك، وكان صاحب طعام ونكاح كان الناس يتحدثون ويتساءلون فى الأطعمة الرقيقة، ويتغالون فى المناك والسرارى، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك، ولما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن الكريم، وكم ورد كل ليلة تقرأ، وكم مرة يختم القرآن، وكم يصوم من الشهر، وما شابه ذلك.



فهرس

رقم الإيداع ١٧٧٦٠ / ٩٩

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى - ١١٢٣١